

نظرية الفعل الكلامي عند جون أوستين *

د. خالد إمام محمد فرج الوحيشي

قسم الفلسفة - كلية الآداب بالزاوية

مقدمة:

يكتسي موضوع اللغة أهمية بالغة في تاريخ الفكر البشري، وذلك لكونها تمثل شرطاً ضرورياً يؤسس لوجود الفكر بالقوة تجسداً فعلياً لهذا الوجود في الوقت نفسه، ولا يمكن الخوض مبدئياً في أية مسألة دون وسيلة التعبير عنها ممثلة في اللغة، بل أنّ كل نشاط بدونها يبدو مستحيلاً، إنّها وسيط بين الإنسان والحقيقة، ولم يكن بالإمكان تاريخياً أن تتشكّل المعرفة الإنسانية وتتطور وتنتقل عبر الزمان والمكان إلا بواسطتها، فاللغة وسيلة وأداة للتواصل بين المتحدثين، وحاجة الإنسان لهذه الوسيلة ضروري في كافة المواقف والظروف، فهي تسهم في ربط العلاقة بين الأفراد. واللغة لم تخرج تاريخياً عن دائرة التأمل الفلسفي، إذ لا يخلو عصر من إسهامات تعكس مستوى التطور الحضاري لمجتمع ما، والذي يمكن أن يقاس بدرجة اهتمامه باللغة، ونظرية أفعال الكلام التي ينادي بها بعض الفلاسفة أمثال جون أوستين وتلميذه جون سيرل تصب في هذا الإتجاه.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في سبر أغوار اللغة ومثاقها خلال الحديث عن نظرية الفعل الكلامي عند أوستين، وخاصة إذا علمنا أنّ هناك صلات عميقة بين مواقف أوستين الفلسفية واللغوية، وبين الفجوات العلمية الكبرى وكذا التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية في المجتمع الأوربي.

أهداف البحث:

يهدف البحث بالدرجة الأولى إلى المساهمة في تقديم قراءة متكاملة قدر الإمكان لجانب من جوانب الفكر اللغوي المعاصر في مظهره الفلسفي والعلمي من خلال تناول نظرية الفعل الكلامي عند جون أوستين من خلال محاولة الإجابة على بعض

التساؤلات منها. ما الموقف اللغوي لجون أوستين؟ ما المعطيات الأساسية التي تخص نظرية الفعل الكلامي عند جون أوستين؟ ما معالم التصور الجديد الذي جاء بها أوستين للغة؟ وكيف جعل منها منطلقاً لتأسيس نظريته في أفعال الكلام؟
المنهج المستخدم:

من المتعارف عليه أنّ لكل بحث منهج تحدده طبيعة الدراسة، عليه فالمنهج التحليلي هو المنهج المستخدم في هذا البحث.

أولاً- مفهوم الفعل الكلامي:

لقد حظي الفعل الكلامي باهتمام العديد من الباحثين في مجال التداولية، نظراً للمكانة التي يحتلها بين العديد من المفاهيم التداولية. فالفعل الكلامي أو نظرية الحديث الكلامي من النظريات التي قامت عليها التداولية، إذ أنّه نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنّه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري⁽¹⁾. أي أنّه حين التلفظ أو التكلم فأنّه يتحقق فعل يحمل غرضاً معيناً للتأثير، لذلك فالفعل الكلامي يسعى إلى تحقيق قوى إنجازية (كالأمر، النهي، الوعد، الوعيد...)، والتأثير في المخاطب بشكل من الأشكال. وهو النطق ببعض الألفاظ والكلمات، وذلك ممّا يحدث أصواتاً على أنحاء مخصوصة متصلة على نحو ما بمعجم معين، ومرتبطة به وخاضعة لنظامه⁽²⁾. ولعل للفلسفة التحليلية دور كبير في ظهور نظرية الأفعال الكلامية، التي كانت بزعامة (غوتلوب فريجه) من خلال كتابه: (أسس علم الحساب)، التي انبثقت عنها فلسفة اللغة بزعامة (فتجنشتاين) الذي رأى أنّ اللغة الطبيعية هي الأداة في المعنى⁽³⁾، وأنّ تقرير الوقائع ليس الوظيفة الوحيدة للغة وإنّما لها عدّة وظائف، وأطلق عليها ألعاب اللغة (كالأمر، التمني، النهي، الاستفهام...) ⁽⁴⁾. من هنا نفهم أنّ الفعل الكلامي هو مركز التداولية يطمح إلى التأثير من خلال القوة الإنجازية التي يحملها، وعليه فوظيفة اللغة لا تقتصر على الوصف، وإنّما تحمل في ذاتها هذه القوة للتأثير والحصول على ردة الفعل، وذلك

بالتعبير عن موقف معين ضمن سياق معين، مع إتباع قواعد معينة متفق عليها ما بين الأطراف المتخاصمة ضمن معجم معين.

ثانياً - الفعل الكلامي المباشر عند أوستين:

يعد جون أوستين مؤسس نظرية الفعل الكلامية، فهو يؤكد أن الوظيفة الأساسية للغة تكمن في الوصف حيث يرى "أنّ وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار، وإنما هي مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صيغة اجتماعية، مثل فتحت الجلسة، فهذا الفعل يحمل طابع اجتماعي، وهو إعلان القاضي عن فتح الجلسة"⁽⁵⁾.

إنّ اللغة حسب أوستين ليست مجرد أداة للوصف ونقل المعلومات، بل أنّ وظيفتها تشكيل العالم والتأثير فيه، وعن هذا يتمحور مشروع أساساً حول السؤال: ما الذي نؤديه بواسطة الأقوال من أفعال؟ لقد عالج أوستين إشكالية المعنى خلال محاولته الإجابة عن السؤال حيث ينطلق من رفضه لهذا الحصر للمعنى ليؤسس موقفاً جديداً يمكننا تلخيصه في رفضه ثنائية الصدق والكذب، وإقراره بأنّ كل قول أو منطوق عبارة عن عمل. انطلاقاً من هذا يرفض أوستين ثنائية الصدق والكذب بالنسبة لجمل الإثبات التي وضعها المناطقة. ويلاحظ بأنّ هناك جملاً ذوات بنية مشابهة لجمل الإثبات، التي يمكن للمتكلم أن تؤدي أدواراً أخرى: الأمر، التقرير، التنبيه... إلخ، غير أنّ هذا التشابه الموجود في بنية بعض الجمل يمثل خداعاً في غياب التحليل الدقيق مثل جملة: أمرك بالمجيء، (أمر). أمره بالمجيء (وصف وتقرير الحال). ويخلص أوستين إلى وجود جمل وصفية إثباتية أو تقريرية تعبر عن حالة الأشياء، أو تصف ما هناك، يمكن إخضاعها لمعيار الصدق والكذب، أي يمكن أن تكون كاذبة أو صادقة، وجمل ذوات نمط خاص يمثل تشكيلها إنشاء لوقائع جديدة، حيث لا يجري عليها معيار الصدق والكذب، وهي الجمل الإنجازية، وبخاصة هذه الأخيرة تكمن في أنّنا عندما نتلفظ بها ننجز في الوقت ذاته أعمالاً. وهذا ما يخص مثلاً الأقوال التالية: أتمنى لك سفراً ممتعاً. أرجو منك المعذرة. أشرك على

حسن انتباهك. فلو نظرنا في هذه الجمل لوجدنا أنها لا تصف واقعاً محدداً، ولذا لا يمكننا أن نصفها بالصدق أو الكذب، ومع ذلك لها معنى ودور معين، إذ كل ما يمكن قوله هو أن هذه الأقوال قد تتجح أو قد تخفق، أو أنها تستجيب لمقتضى الحال أولاً، أي أن معناها مرتبط بشروط إنجازها، ويسمى أوستين هذه الأقوال بالأفعال الإنجازية⁽⁶⁾، إننا عندما نلتفظ بها نؤدي في الوقت نفسه عملاً، أي أننا ننجز فعلاً بواسطة الكلام، وهذا النوع من الأقوال تتعكس على نفسها، فقولنا (أرجو منك المعذرة) يعبر في الوقت عينه عن أن ثمة طلب للمعذرة، فضلاً عن كوني أعرب عن رجاء، ويذهب أوستين إلى أن للمنطوقات الإنجازية أو الإنشائية صيغة العبارات الإخبارية، ولكنها لا تتصف بالصدق أو الكذب. وأن الحكم عليها يتوقف على ملائمتها أو مخالفتها لجمله من الشروط التي تضمن لها النجاح والتوفيق أو الإخفاق أو أنها تستجيب لمقتضى الحال أولاً⁽⁷⁾، وتفترض هذه المنطوقات أو الأقوال أولاً وجود كيفية اصطلاحية، وتستدعي نتيجة اصطلاحية أيضاً، وهذا يشابه مفهوم القواعد عند (فتجنشتاين) أي أنه لا بد من وجود تواضع بين مستعملي اللغة نفسها، وهذا ما يؤسس للملائمة بين العبارات المستخدمة، وبين الشروط. وأن كل الأفراد المساهمين في التفاعل ملزمون بالامتثال إلى الكيفية التي تلزم وتجبر على اعتماد هذه القواعد، وهذه الكيفية يجب تنفيذها بإخلاص، وبشكل كامل من قبل المشاركين. ويمكن لهذه الأقوال أن تكتسي أشكالاً مختلفة. لنلاحظ الجمل التالية: 1: بعثك سيارتي. 2: قبلت بهذه المرأة أن تكون زوجة شرعية لي. 3: إنني أهب ساعتك وأورثها لأخي⁽⁸⁾. إن هذه الجمل لا تقبل الصدق أو الكذب، ومع ذلك فهي ليست بدون معنى، إننا نقوم بواسطتها بأداء فعل ما. فعندما نلتفظ بمثل هذه الأفعال الإنجازية فنحن ننجز ذلك الفعل، وهكذا يعيد أوستين الاعتبار لأنواع الجمل كالأمر والتحدي والوعد والنهي والشكر، بالإضافة إلى مختلف العبارات الأخلاقية والجمالية مبيناً أن لكل نوع منها نمطاً من المعنى.

لقد حاول أوستين الكشف عن تلك الشروط التي تخص هذا النمط من العبارات، أو ذلك كشرط ملائمة السياق وسلطة المتكلم وصدقه ومختلف الاعتبارات الثقافية، ممّا مكّنه من وضع تصنيف لأفعال الكلام، ولتحديد معيار النجاح أو الفشل بالنسبة للجمل الإنجازية صاغ أوستين جملة من المعايير تتمثل فيما يلي:

- 1: ينبغي وجود اتفاق عرقي أو مؤسساتي متعارف عليه لدى المشاركين في التبليغ؛ ليملكهم ذلك من إنجاز فعل ما عند التلفظ بجملة معينة.
- 2: ينبغي تطبيق هذا الاتفاق في وسط ملائم يشمل الأفراد المعنيين أو المشاركين.
- 3: يجب أن يؤدي هؤلاء المشاركون أدوارهم في عملية التبليغ بشكل صحيح وملائم.
- 4: يجب أن يكون هناك استقرار فيما يخص مواقف المشاركين حتى يتم إنجاز الفعل.

ويشترط أن تثور نوايا وأفكار عند منقذ الفعل قبل إنجازه؛ كي تتحقق بعض الأفعال، فمن يعد بالزيارة ينبغي أن تكون له نية الوفاء بالوعد، وإلا فتتحقق الفعل قد لا يرضي المخاطبين بالزيارة.

أمّا المعايير المقالية فتشمل جملة من الشروط، وتخص الجانب البنيوي الشكلي منها خاصة.

- 1: يجب أن ينتمي فعل الجملة الإنجازية إلى مجموعة الأفعال الإنجازية (أمر، وعد، سأل...).
 - 2: يجب أن يكون الفاعل هو المتكلم.
 - 3: يجب أن يكون فعل الجملة مبيناً للفاعل.
 - 4: يجب أن يكون زمن الفعل هو زمن التكلم، أي أن يكون مصداقاً في الحاضر.
- وإذا حصل إخلال بشرط منها أدّى ذلك إلى الإخلال بطبيعة الجملة، ممّا يحيلها إلى جملة وصفية.

أمّا الخطوة التالية في مشروع أوستين فتمثلت في التساؤل عن إمكانية إخضاع الجمل الإنجازية لنفس معيار الجمل الوصفية، أي الصدق والكذب. وهل يمكن أن

تقبل هذه الأخيرة معيار الفشل والنجاح؟ وانتهى أوستين إلى إمكانية التعامل مع الصنفين من الجمل بالمعيارين معاً، وأنه لا يمكن الفصل آلياً، بينما هو وصف وما هو إنجاز، وذلك لأن جميع الجمل اللغوية قول وفعل في الوقت ذاته، وبالتالي يمكن اختزالها في صنف واحد مبيناً أن ما ندعوه جملاً وصفية هو في الواقع جملاً إنجازية يقوم فيها المتكلم بفعل شيء زيادة على فعل التلطف أو القول، فمثلاً عندما نقول: (البحر مضطرب هذا اليوم) فهذه الجملة مرادفة لجملة: (أقول إن البحر مضطرب اليوم). يعود الفرق بينهما إلى القوة الإنجازية التي تبدو ضمنية في الجملة الأولى، بينما هي صريحة في الجملة الثانية. لكن أوستين أعاد النظر في المعايير المقامية و المقالية السالفة الذكر فتبين له أنها مقيدة بالجمل الإنجازية الصريحة، وأن هذه المعايير لا يمكن تعميمها على كل الجمل، فالمعيار المعجمي مثلاً الذي ينص على أن الجملة الإنجازية يجب أن تشمل فعلاً من النوع الإنجازي (أمر، سأل، وعد...) غير دقيق، لأنه من الجائز أن نستبدل عبارة (سأفعل كذا) بعبارة (أعدك بأن أفعل كذا)، إذ يلاحظ أن الجملتين إنجازيتين، لكن يمكن للصيغة الأولى أن ترد في سياقات تتضمن أفعالاً غير إنجازية. كما أن شرط الدلالة على الفرد المتكلم غير صائب، لأن بعض الجمل قد يتلطف بها الفرد، لكنها تشير إلى المعنى بالكلام. وكذلك الأمر بالنسبة لشرط البناء للمعلوم إذ يمكن أن ترد الجملة الإنجازية مبنية للمجهول. وكذا الأمر بالنسبة لزمن الفعل، فمن الممكن أن لا يدل على الحاضر، وإنما على زمن آخر، وقد قادت هذه الملاحظات من جديد أوستين إلى نتيجة مفادها أن ما يحدد القوة الإنجازية لأية جملة هو السياق بمفهومه الواسع. كأن يكون سياقاً لغوياً يعكسه عبارات متداولة، أو سيغ وأدوات دالة على الأمر والاستفهام والتعجب أو قرائن صوتية، وما ترتب عن هذه الانتقادات أنه لا توجد ثنائية الوصف والإنجاز. والبدل بالنسبة لأوستين هو توحيد جميع الجمل اللغوية في مصطلح واحد، هو مصطلح الفعل اللغوي الذي مثل خطوة ثالثة في نظريته اللغوية، فحين نتلفظ أو نقول كلاماً فنحن نحقق أو ننجز حقيقة فعلاً ما. وحسب تحليل أوستين فالفعل اللغوي يحتوي

على ثلاثة أفعال، تشكّل كياناً واحداً، علماً بأنّ هذه الأفعال الثلاثة يقع حدوثها في وقت واحد.

1: فعل القول: يضم فعل صوتي، تركيبياً دلالي، فهو يضم مجموعة من الاصوات تحكمها قواعد معينة، وهذه الأصوات تحمل في ذاتها معنى معيّن فجميعها تشكل فعل القول⁽⁹⁾.

فالفعل الصوتي يتمثل في التلفظ، أو في إنتاج أصوات تنتمي إلى لغة معينة، أمّا الفعل التركيبي فيتمثل في كون هذه الأصوات تتوفر على صورة كلمة معينة، أي بارتباطها بفعل كلامي مصحوب بقوة مخصوصة، أي أنّ الحدث الصوتي مصحوب بقصد لغوي، يريد المتكلم إنجازَه بواسطة الكلام، أو فضلاً عن انتماء هذه الأصوات إلى لغة محدّدة، وخضوعها لقواعد هذه اللغة النحوية، والفعل الخطابي الذي يجعل هذه الكلمات أو العبارات ذات دلالة معينة في سياق محدّد.

2: فعل الإنجاز: يتمثل في الجانب المقامي للجملة، والذي يربط فعل القول بمقصد المتكلم وعرضه من الجملة، كأن يكون القصد منها الأمر، السؤال، الوعد أو غير ذلك من الأعراض. والقيمة الإنجازية يمكن استخلاصها من السياق اللغوي استناداً إلى مؤشرات أو قرائن معيّنة، أو من السياق المقامي. وما يميزه أنّه "قيام بفعل ضمن قول شيء، أي ضمن فعل القول في مقابل القيام بفعل هو قول شيء"⁽¹⁰⁾.

3: فعل التأثير: ويتمثل في الأثر الذي يحدثه فعل القول أو الإنجاز، وينعكس ذلك على سلوك المخاطب وعلى أفكاره ومشاعره. أي أنّ الفعل في هذه الحالة يخص المخاطب. وهو يستهدف التأثير على قناعاته ومشاعره ومثال ذلك العبارات الإشهارية المختلفة، والفصل في هذه الحالات يرجع إلى السياق وبشكل خاص سياق الموقف.

لقد اهتم أوستين أكثر بالفعل الإنجازي لكونه فعل لغوي بالأساس مقارنة بفعل التأثير الذي يمكن أن يكون إشارياً، وكنتيجة لهذا صنف الأفعال اللغوية إلى خمسة أصناف⁽¹¹⁾.

1: الأفعال اللغوية الدالة على الحكم: قدر، قيم، حاكم، حكم، برأ.

- 2: الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة: أعلن، عين، نصح، حذر...
- 3: الأفعال اللغوية الدالة على الوعد: وعد، تعهد، التزم...
- 4: الأفعال اللغوية الدالة على السلوك: اعتذر، احتج، لعن...، ووظيفة هذه الأفعال هي ضبط سيرة وسلوك المتكلمين.
- 5: الأفعال اللغوية الدالة على العرض: اعترض، ذكر، صاغ، اعترف، رد، أنكر، وتقوم هذه الأفعال بضبط مكانة أقوالنا داخل الحديث أو الحوار، لكن أوستين عاد في مرحلة لاحقة لينتقد المعايير التي اعتمدها للتمييز بين الوصف والإنجاز. وهذا يعني أنَّ التقابل الذي وضعه بين الصدق والكذب، أو بين النجاح والفشل غير مناسب للتمييز بين العبارات، أو بين الجمل الوصفية والجمل الإنجازية، إذ يمكن تقييم إحداهما بمعيار الأخرى، وهذا التحول في موقف أوستين يكشف عن صعوبة تحديد المعايير التي يمكن أنْ تكشف لنا بوضوح عن قواعد الاستعمال، وهو الموقف ذاته الذي تبناه (فتجنشتاين) حيث قاده وعيه بمستوى التعقيد المميز للاستعمال اللغوي، وبتعدد الشروط الموجهة له، وتوخي كل الحذر في القول بوجود معايير ثابتة، وهذا ما تؤكدُه المفاهيم المؤسسة لنظريته اللغوية.

الخاتمة:

نخلص مما سبق أنَّ الفضل الأكبر في دراسة أفعال الكلام التي تنجز باللغة يعود إلى الفيلسوف أوستين، الذي اشتهر كرائد لنظرية أفعال الكلام، وهو الذي أرسى معالمها ودعائمها، وأكدَّ أنَّ اللغة لا تهدف إلى التواصل فحسب، وإنما إلى التأثير والإقناع من خلال آليات متعددة لها، تجعلها تسهم في عملية التواصل واستمرارية الخطاب، ولا تكمن قوة نظرية الفعل الكلامي عند أوستين في منطلقاتها النظرية البسيطة فقط، بل أيضاً في رهاناتها المنهجية والعملية التي تغري بالممارسة التحليلية للخطابات الكلامية واللغوية المتداولة في الواقع المعيشي للناس، فهي نظرية لسانية وفلسفية تجسّد موقفاً مضاداً للتيار السائد بين فلاسفة اللغة والمنطق الذين دافعوا عن التصور الوضعي للغة، والذين قاموا على تحليل العبارات اللغوية مجردة عن سياقاتها

التخاطبية، متوسلين بما وصفه بالتسلط المنطقي القاضي باعتبار الجمل الخبرية والعبارات التقريرية هي النموذج الحقيقي للألفاظ الدالة، وذات المعنى الحقيقي، وما عداها يمثل أقوالاً غير ذات معنى، وقد خلصنا إلى مجموعة من النتائج منها:

1: يرجع الفضل في ظهور مفهوم الأفعال الكلامية للفيلسوف أوستين الذي رأى أنّ اللغة لا تعمل على التواصل فقط، وإنما على التأثير من خلال الأعراض التواصلية التي تؤديها اللغة.

2: الفعل الكلامي عند أوستين قوة إنجازية منها الخبر، والاستفهام، النهي، النداء، وقد تخرج هذه الأعراض إلى دلالات أخرى قد تحمل التحذير والتنبيه، التأكيد، السخرية، الإنكار.

3: نشير إلى أنّه فيما قبل نظرية أفعال الكلام لم يتم بعد اعتبار العبارات غير الخبرية كالعبارات الأخلاقية، والإنشائية كألفاظ إنشائية بالمعنى الذي يفيد كونها أقوالاً إنجازية.

الهوامش:

*جون أوستين هو فيلسوف لغة بريطاني عاش ما بين عامي 1911م، و 1960م يعد مؤسس نظرية أفعال الكلام له العديد من المؤلفات من أشهرها كتاب كيف نعمل الأشياء بالكلمات.

1: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص 40.

2: جون أوستين، نظرية أفعال الكلام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص 116.

3: مسعود صحراوي، مرجع سبق ذكره، ص 23.

4: محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1985م، ص 21.

- 5: عمر بالخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الأختلاف، الجزائر، 2003، ص155.
- 6: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد، ط2، 2010، ص23، وينظر: إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993م، ص142، 143.
- 7: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص44.
- 8: عمر بالخير، تحليل الخطاب المسرحي، مرجع سبق ذكره، ص137.
- 9: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 10 : جون أوستين، نظرية أفعال الكلام، مصدر سبق ذكره، ص100.
- 11: عمر بالخير، تحليل الخطاب المسرحي، مرجع سبق ذكره، ص159.